القسم الثاني

مقترحات تربوية

استناداً إلى ما سبق، تبرز خطوط تربوية نقترحها على المربين المسيحيين بوجه عام، ومرشدي فرق الشباب بنوع خاص. ويمكن أن نوجزها بالنقطتين التاليتين:

١ ـ أن يتخذ المربون موقفاً سليماً من الجسد والغريزة.

ب ـ أن يساعدوا الشباب على التمرس على لقاء الآخر وتعهد الغريزة في الخبرة الجنسية.

www.christpal.com

١ ـ أن يتخذ المربون موقفاً سليماً من الجسد والغريزة

أ ـ أن تبنى التربية الجنسية على تعهد الجسد لا على تجاهله.

فالمفروض أن تكون التربية الجنسية مبنية لا على تجاهل الجسد بل على تعهده، وهذا يعني أنه، وإن كان لا بد إلى حد ما من عنصر القمع في الوضع الإنساني الراهن،

فلا ينبغي التركيز عليه بل على المؤالفة والمصالحة بين الطاقات الغريزية وأهداف الحياة الروحية، بحيث يغتذي السعي إلى هذه الأهداف من زخم الطاقات المذكورة[٣٧]، وبالمقابل يهذبها ويوجهها في خط «التسامي»، هذا التسامي الذي لا يصبح ممكناً إلا إذا لم تعزل الغريزة ولم تجمد على هامش الشخصية[٣٨] بل سمح لها بالتحرك والتعبير والتفاعل والتوظيف في علاقات إنسانية أصيلة من شأنها أن تضبطها وتصقلها تلقائياً[٣٩].

ب ـ أن يقف المربون من النزعات الجنسية موقفاً متفهماً.

لذا اقتضى على المربين أن لا يقفوا من النزعات الجنسية التي تبرز في مختلف مراحل الطفولة موقف القمع المبدئي والاستهجان، بل موقف التفهم والمرونة الذي يسمح لتلك النزعات أن تعبر عن نفسها بحرية وأن تتأقلم تدريجياً مع متطلبات الحضارة وفقاً لتقدم الشخصية الناشئة على طريق النمو والنضج[٤٠]. أما في المراهقة، فينبغي للمربين أن يمتنعوا عن تغذية هذا الخوف الفطري الذي يعتري المراهق من جراء يقظة الغريزة فيه بفعل التحولات البيولوجية الخاصة بهذا العمر (وهو خوف يعود إلى الطابع العنيف الأهوج الذي تتخذه هذه اليقظة الغريزية في أول

عهدها وإلى ما تثيره من مشاعر الخوف والذنب النابعة من عقد الطفولة) والذي يدفعه، في كثير من الأحوال، كما بينت أنّا فرويد، إلى قمع مفرط لجسده[٤١]، بل أن يسهلوا أمامه، بصفائهم وتفهمهم، مجال المواجهة الصافية الموضوعية لتلك الطاقات المتفجرة واكتشاف ما تحمله من وعود وإيجابيات. هكذا يصبح بوسعهم أن يساعدوه على التمرس على لقاء الآخر وتعهد الغريزة في الخبرة الجنسية التي تواجهه بحدة في هذا العمر.

٢ ـ أن يساعدوا الشباب على التمرس على لقاء الآخر وتعهد الغريزة في الخبرة الجنسية

أ ـ ضرورة إفساح المجال أمام الاكتشاف الذاتي.

إن هذا التمرس عنصر أساسي، كما رأينا، في تربية الشباب، لا الإنسانية فحسب بل الروحية أيضاً ـ والاثنان لا ينفصلان في ديانة التجسد ـ لذا ينبغي للمربي أن يرعاه ويوجهه. والمقصود بالتوجيه هنا ليس أن نقدم للشباب بصورة فوقية أفكاراً جاهزة وحلولاً معدة مسبقاً، وأن نكتفي بتلقينهم إياها، ولو بشكل واضح ومقنع، منتظرين منهم أن يستوعبوها ويطبقوها وحسب. فهذا لا يكفي

لانشاء قناعات عندهم وبالاحرى لا يكوّن فيهم تلك القاعدة الداخلية الراسخة التي يمكنهم الركون إليها في توجيه سلوكهم بحيث يصبح هذا السلوك معبراً فعلاً عن شخصيتهم، مندمجاً بها إلى أبعد حد. أن الاخصائي النفسي السويسري الكبير، جان بياجيه، يذكرنا بأن المرء لا يستطيع أن يتعلم السباحة إذا اكتفى بالتفرج على سباحين يقومون بحركاتها أمامه، بينها هو جالس على مقعد لا يتزحزح عنه(٤٢). كلنا يعرف أنه ينبغي له بالعكس أن يزج بنفسه في الماء ويمارس حركات السباحة بنفسه ويخطىء ويتعلم من اخطائه. أن التيار الغالب في علم النفس التربوي المعاصر يثبت بالحجج العلمية الدامغة أن المرء لا يكتسب معرفة حقة للاشياء إلا إذا نشط في اكتشافها بنفسه(٤٣). هذا صحيح بالنسبة للمعرفة العقلية، فكم بالحري بالنسبة لمعرفة حياتية كتلك التي نحن بصددها. من هنا اقتضى، إذا شئنا أن نتحاشى الكلامية الخلقية التي تبقى على سطح الكيان، أن نفسح أمام الشبان والشابات المجال لكي يكتشفوا بأنفسهم لقاء الآخر وتعهد الغريزة في الخبرة الجنسية، وذلك من خلال سعي شخصي وجماعي إلى الحقيقة، ينبغي لنا أن نترك له مداه الضروري، رغم ما يكتنفه من تردد وتعثر، وإن لا نبالغ في اختزاله تسرعاً منا

في إيصال الشباب إلى النتيجة. إذ ليس المهم فقط أن يجدوا، بل أن يسعوا أيضاً؛ فالسعي مهم بحد ذاته، كما يوضح المحلل النفسي والمربي الفرنسي الدكتور اندريه برج[٤٤]، من حيث أنه ينمي الشخصية ويوسع ويعمق مداركها بالممارسة وينمي وينضج طاقاتها، وبالتالي يمكنها من أن تستوعب فعلاً ما توصلت إليه من نتائج.

هذا السعي يتم في خطين متكاملين: الخوض العقلي للخبرة الجنسية، والخوض الحياتي لها.

ب ـ الخوض العقلي للخبرة الجنسية.

* مساعدة الشباب على مواجهة مواضيع تقلقهم

ينبغي للمربي أن يشجع الشباب الذين في عهدته على التحدث في هذه المواضيع الشائكة، المقلقة، لأن التعبير الكلامي عما يختلج في أعماق نفوسهم من نوازع وصراعات يساعد على تعهدها الواعي وعلى دمجها في وحدة شخصية متكاملة وعلى الحؤول دون تحولها إلى كيانات هامشية تفقر الشخص وتهدد توازنه. وليس تحقيق هذا المطلب بالأمر السهل. فخبرة مرشدي الفرق الشبابية تثبت كم هي شائعة ظاهرة الهروب الذي يواجه (بفتح الجيم) به

اقتراح الخوض في هذه المواضيع. وقد يتخذ هذا الهروب شكل الادعاء بأن لا مشكلة ولا تساؤلات في هذا المجال، أو في أحسن الاحتمالات شكل القاء المبادرة على المرشد والطلب إليه أن يعالج بنفسه الموضوع أمام فرقته. هذا الهروب مؤشر لعملية صد Inhibition مردها من جهة إلى القمع المسلط على موضوع الجنس في المجتمع والتربية[٤٥]، ومن جهة أخرى إلى الصورة المسبقة المبتورة التي يرسمها الشباب، حتى المنتمين منهم إلى حركات دينية، حول طبيعة الاجتماعات «الدينية» وحول الدين نفسه كموضوع لا تماس حقيقي بينه وبين شؤون الحياة وشجونها. على المربي أن يواجه هذا الهروب بمزيج من الإصرار والمرونة، متحاشياً الاكراه ومتجنباً بالقدر نفسه الدخول في لعبة الهروب. عليه خاصة أن يتحلى بقسط من النضج النفسي والروحي[٤٦] يمكنه من مواجهة أمور الجنس بصفاء وترحيب، فيتحسس الشباب فيه هذا الموقف الكياني لما له من اصداء في أعماق شعورهم، مما يساعدهم على تخطي مقاوماتهم النفسية الذاتية وبالتالي على الانفتاح والمكاشفة.

*** حلقات المناقشة ودور المرشد**

عند ذاك يستطيع المربي أن يفسح المجال أمام

حلقات مناقشة يكون الشباب فيها ناشطين إلى أبعد حد في التحـري الفكري لحقـائق الجنس متعاونـين على ذلـك فيما بينهم، بحيث ينحصـر دور المرشـد في مسـاعـدتهم عـلى اكتشـاف تلك الحقـائق بـأنفسهم. هـذا يعني أن تحـدد مجموعة من الشبان أو الفتيات (أو نـدوة مختلطة من هؤلاء واولئك) بنفسها جدول النقاط التي تود الخوض بها، وأن لا يقبل المرشـد بحال من الأحـوال أن يحدد المـواضيع عنهـا، وأن يحرص على أن تكون النقاط المحددة واضحة وتفصيلية بحيث لا تتخذ العناوين العامة ستاراً للتهرب من مـواجهة المسائل الراهنة بكـل ما قـد تحمله من شحنات القلق (فـلا يجوز أن نكتفي مثلاً بعنوان يصاغ على الشكل العـام التالي «العلاقات بين الشبان والفتيـات» بل أن نقـود الشباب إلى توضيح الخلفيات الراهنة التي يتخذها هذا الموضوع بالنسبة إليهم وبالتالي إلى صيـاغة هـذه الخلفيات بشكـل تساؤلات أكثر تحديداً[٤٧]). فإذا تم ذلك يترك لكل فرد من المجموعة حرية ابداء آرائه وطرح تساؤلاته بكل حرية وصراحة، مهما بدت غير مألوفة ومستهجنة اجتماعياً (وهذا ما يشجع عليه الموقف المتقبل الذي يقفه المرشد ويشيعه)، على أن يتفـاعل المرشد باخلاص واحترام مع هذه المواقف ويعبر بدوره عن قناعاته الشخصية بنفس الحرية والصـراحة. هـذا وإن من

أهم وجوه مساهمة المرشد في حلقات المناقشة هذه، أن يكون له فيها دور الوسيط والمنسق والمنشط، فيعيد بشكل واضح صياغة الآراء المطروحة ويعكسها هكذا للمجموعة، كما أنه يربط ويقارن فيما بينها، ويبرز وجوه الاتفاق والاختلاف والتناقض والتكامل، ويطرح في الوقت المناسب الاسئلة الملائمة التي تسمح بمد النقاش ودفعه إلى الامام وفتح سبل جديدة في وجهه.

*** جدوى هذا الخوض في تنشئة الشباب**

هذه خبرة مثيرة فعلاً لمن تجرأ عليها من المربين ـ بعد استعداد بالطبع ـ فإذا به يرى الشبان أو الشابات ـ بعد فترة تقصر أو تطول من التحفظ والحذر ـ يقدمون على التعبير عن هواجسهم وتساؤلاتهم وخبراتهم الحقيقية، بما فيها من قلق واخطاء وتعثر ورفض وشكوك، وبما تحويه مقابل ذلك من حدس صحيح لمقتضيات المعنى الإنساني للجنس وسعي حقيقي إلى إصالة العلاقة واكتمالها؛ فيكفون عن الاحتماء وراء العموميات والأفكار الجاهزة والقوالب «الاخلاقية» و«الدينية» المفروضة، ويصبحون قابلين لتلمس طريقهم الحقيقية من خلال الهفوات والعثرات والتردد والحيرة، في سعي مخلص، شخصي وجماعي معاً، إلى الحقيقة، عبر الأخطاء التي يشعرهم

موقف المرشد أن لهم الحق فيها لأن السعي إلى حقيقة حية مندمجة في الكيان لا بد من أن يمر بالاخطاء ليستفيد منها ويتجاوزها. ما يكتشفونه عند ذلك بأنفسهم، بمساعدة المرشد، لا بد وأن يصبح جزءاً من كيانهم وأن يكون له أثر عميق وفعال في حياتهم (اذكر الفرح والقناعة الصميمة اللذين ظهرا عند شبان إحدى الفرق لدى اكتشافهم الجماعي مع المرشد بالرجوع إلى خبرتهم مقاييس التمييز بين الحب ومجرد الرغبة). فإذا بما كان بالنسبة إليهم مبادىء مجردة أو نواميس خارجية يصبح، بعد تحرره من الزوائد المزيفة، حقائق من لحم ودم تتجاوب مع ما يتوقون إليه في الأعماق عبر ظواهر الضعف والضياع، فيسترشدون بها عن اقتناع وجداني صميمي ويختبرون أن أمانتهم لها إنما هي أمانة لأفضل ما في ذواتهم.

ج ـ الخوض الحياتي العلائقي للخبرة الجنسية

*** تهيئة أفضل الشروط للقاء حقيقي بين الجنسين**

ولكن المباحثات الفكرية عن الجنس لا تكفي، أياً كانت حيويتها وعفويتها وصراحتها، إنما ينبغي أن يفسح المجال أيضاً أمام الخبرة الجنسية كي تشق طريقها وتتلمس أصالتها في الواقع المعاش. هذا ما يفرض علينا، نحن المربين، أن نهيء أفضل الشروط للقاء حقيقي بين الجنسين

يتناول كافة الأصعدة من فكرية وشعورية واجتماعية وروحية. واللقاء هذا ليس بالسهولة التي قد نتصورها. فبغض النظر عن المعارضة الصريحة أو الضمنية التي لا يزال مجتمعنا يقابل بها فكرة الاختلاط، وما ينتج عن هذه المعارضة من ضغوط ومضايقات تتناول المجموعة أو أفرادها، فهناك العوائق النفسية التي تعرقل مسيرة الاختلاط وتعكر صفوه في هذه المرحلة الحساسة والمتناقضة من العمر، حيث يصطدم الانجذاب المتزايد نحو الجنس الآخر بعوامل الحذر والخوف النابعة من أعماق الشعور والمغتذية برواسب التربية، وبما يرافقها من استعلاء (خاصة عند الذكور الذين يجدون في تركيبة المجتمع الرجالي الأبوي وذهنيته حافزاً وتبريراً لهذا الشعور) وعدوان ونزعة إلى تكتل أفراد الجنس الواحد على حدة بازاء الجنس الآخر. فإذا ساعدنا الشبان والشابات على تخطي هذه العقبات وافسحنا أمامهم فرصة اللقاء المتكامل فيما بينهم ـ لا اللقاء المختلس الذي هو حكماً لقاء مجتزأ تغلب عليه وتطغى الفورات العاطفية أو الغريزية ـ فلا بد أن نتوقع نشوء علاقات عاطفية خاصة بين هذا الشاب وتلك الفتاة.[٤٨]

*** الرعاية الخفرة للعلاقات العاطفية الناشئة**

ليس علينا برأيي (وهنا اجيب عن السؤال الثاني

المطروح في أول هذا المقال) أن «نشجع» مثل تلك العلاقات (إذ أننا لو فعلنا ذلك لنصبنا أنفسنا أوصياء على الشباب في شأن يعنيهم شخصياً ولربما أوحينا لهم بالانخراط في علاقة لم يصبحوا مستعدين وجدانياً لها بعد)، كما أنه ينبغي ألا نقف منها «موقفاً لا مبالياً»، حسب عبارات السؤال نفسه، (لأن مثل هذا الموقف لا بد وأن يبدو وكأنه استخفاف بخبرة حساسة جداً يعيشها الشباب)، بل أن نتقبلها إذا حصلت تقبلاً صميماً - وليس على سبيل المجاملة أو الرضوح للأمر الواقع - على أنها واقع إيجابي في الأساس إذ أنها محاولة للخروج من قوقعة الذات في سعي حثيث إلى الآخر. ينبغي للمرشد أن يجعل الشباب يشعرون بقبوله هذا، وهذا ما يساعدهم على قبول انفسهم في خبرتهم الجديدة هذه التي لا تخلو من قلق، وعلى مواجهتها بأكثر صفاء ووضوح رؤيا ، مما يساعدها على اتخاذ نهج سوي سليم. ثم عليه أن يرعى هذه الخبرة، وهذا لا يعني أن يقحم نفسه فيها مما يشكل تطفلاً على المراهق ونوعاً من الاغتصاب لحياته الحميمة، إنما أن يكون مستعداً للتفاعل الإيجابي معها من خلال اللقاءات الجماعية أو الشخصية التي قد يأتي ذكرها فيها بشكل مباشر أو غير مباشر (سواء أفضي بها إليه في مقابلة شخصية أو ترددت

اصدقاؤها في المناقشات الجماعية التي اتينا على ذكرها سالفاً، عندما يصبح للشباب الثقة الكافية كي يستلهموا خبراتهم الحقيقية، وإن بشكل خفر، في تلك المناقشات، وهذا ما يشجعهم عليه تقبل المرشد الايجابي لتلك الخبرات).

إن الخبرات هذه تسمح للطاقات الغريزية بأن توظف في علاقات حقيقية وأن تكتسب بالمقابل من هذه العلاقات الانضباط التدريجي الذي تحتاج إليه. ولكن هذا لا يتم بدون تخبطات وتناقضات وازمات وعثرات وخيبات وآلام ونكسات. تلك هي الحياة، بغناها ومأساويتها. لذا يترتب على المربي أن يكون مرافقاً للمراهقين في خبرتهم هذه، وأن يكون حضوره إلى جانبهم متيناً يركن إليه من جهة، وخفراً، خفيف الظل من جهة أخرى، وأن يوليهم ثقته مهما تقلبت الظروف، بحيث يساعدهم بتلك الثقة على وعي اخطائهم (عوض التهرب من مواجهتها) وتصحيحها واتخاذها عبرة ومنطلقاً للتقدم.

*** مساعدة الشباب على احترام قواعد «لعبة الحب»**

هكذا يستطيع أن يرعى تلك الخبرات الناشئة وأن يساعد الشباب على أن يعوا في خضمها، ويتذكروا دوماً،

أن هـاجس السعي إلى الآخـر شـرط الجنس الصحيـح المكتمـل[٥٠]، بحيث يتكون لـديهم حس من هـذا القبيـل يقـوّمون بموجبه اختبـاراتهم (وقد اثبتت الخبـرة قدرتهم عـلى اجـراء مثل هـذا التقـويم). هنـاك قنـاعـة يمكن أن يصلوا إليها، من خلال التفاوض فيما بينهم ومـع المرشـد، بحيث تصبح مبدأ حياً يسترشدونه في خبراتهم العاطفية، ألا وهي أن هذه الخبرات إنمـا هي في عمرهم «لعبـة الحب» لا أكثر ولا أقـل، بما يحمله اللعب من رصـانة[٥١]، وأن المـطلوب منهم إذاً أن يحتـرموا «قـواعد اللعبـة» وأن يتجنبوا فيهـا كل غش. فمن قـواعد اللعبـة أن لا يتناسى أحـد الطرفـين أو كلاهما أنها (على الأقل في أول الـطريق) مجرد لعبـة يتمرس فيها المراهق عـلى الحب (كما يتمـرس الولـد على الحيـاة من خلال العابه، عندما يمثل مثـلاً أدوار الراشـدين) ويكتشف وينمي ويصقل قدراته في هذا المجـال، وإنها ليست بالتـالي حبـاً نهائياً مكتمـلاً، كما قـد يتـوهم؛ ممـا يجنبـه التـورط أو توريط شريكـه في طرق قـد يتضح فيـها بعد إنها مسـدودة. ومن قواعد اللعبـة أيضاً أنها لعبـة يشارك فيهـا اثنان، فمن الـزيف إذا أن يتصرف المـرء فيها وكـأنه وحيـد فلا يـراعي مشـاعـر الآخـر وأفكـاره وأوضـاعـه ووتيـرتـه العـاطفيـة وخصـوصيات جنسـه وشخصيته. ومن قـواعـد اللعبـة أن

التعابير الجنسية فيها لغة تعبر عن درجة اللقاء الوجداني الحاصل بين الشريكين، بحيث لا يجوز أن يتجاوز التعبير مدلوله فيفقد صفته التعبيرية ويصبح لغواً فارغاً، من هنا ضرورة عدم التسرع لدى استعمال هذه التعابير والحرص على التقدم فيها على قدر ما يسمح به تنامي الوصال الوجداني بكل ابعاده التي تشمل البعدين الغريزي والعاطفي وتتجاوزهما إلى صعيد الفكر والإرادة والأهداف والتطلعات والقيم والمسؤولية والالتزام المستقبلي.

*** اهمية الافادة من الاخطاء**

هذا وينبغي أن نساعد الشباب على أن يدركوا أن هذه المبادىء سوف تتوضح وتترسخ فيهم من خلال ممارسة تتخللها الهفوات والعثرات، كما أن السباح يتعلم السباحة من خلال ابتلاعه المتكرر للماء المالحة، وأن طريق ما يسميه الناس، برومنطيقية أو استخفاف، «العلاقة الغرامية»، ليس نزهة ممتعة لمن كان يبتغي أصالة الحياة. ينبغي بالطبع أن نحميهم قدر الإمكان من الخطأ، إنما ينبغي أيضاً أن نتحاشى الحماية المفرطة التي تعطل نموهم وتؤذيهم، وأن نساعدهم على تخطي جزعهم من الخطأ (هذا إذا عرفنا نحن أن نتخطى جزعنا أمام اخطائهم)، مما يمنحهم، كما سبق وقلنا، الصفاء الكافي لمواجهة هذه الاخطاء بصراحة

والاعتراف بها بصدق وبالتالي اصلاحها واستمداد العبرة منها لسلوك مستقبلي أكثر وعياً ونضجاً ومسؤولية .

د ـ نحو المصالحة الكيانية بين الغريزة والايمان .

فاذا ما اكتشف الشباب، على هذا المنوال، من خلال سعيهم الفكري وتجربتهم الحياتية، بالتعاون فيما بينهم وبمساعدة المرشد، وبتوجيه من ذلك الحس الانجيلي الذي هو قلب كل تربية مسيحية ومحورها، مقتضيات العلاقة الانسانية الاصيلة التي بها يكتمل الجنس ويأخذ معناه الانساني، صار بإمكانهم أن يدركوا (وهم يطرحون تلقائياً على كل حال اسئلة في هذا المجال) معنى الموقف الإيماني المسيحي من أمور الجنس، وأن يفهموا أن هذا الموقف ليس ناموساً قمعياً يفرض من الخارج على شاكلة الضغوط الاجتماعية والتربوية التي يتعرضون لها وبالتآزر مع تلك الضغوط؛ وإنه، إذا أخذ على اصالته وفي ينابيعه الحية المتفجرة، محرَّراً من ترسبات العقد النفسية والاجتماعية التي كثيراً ما تشوه تعابيره، لا يلصق بالواقع الجنسي أحكاماً كيفية اعتباطية غايتها أن «تقصقص اجنحته» وتحد من حيويته ـ وكأن الله لا يرضى عن الانسان إلا بعد أن يخمد فيه ما وهبه من طاقة الحياة ـ، إنما هو تكريس لما يسعى إليه الجنس في توقه الانساني الفريد،

من مشاركة انسـانية صميمـة وما ينبـع منها من فـرح وحياة واكتمـال، وحمايـة لهذا التـوق من كـل انحـراف، وجـلاء للنموذج الالهي الذي ينطلق منه هذا المسعى ويتجه إليـه، عن وعي أو عن غير وعي، ألا وهو «حركة الحب الأبـدية» التي تجمع اقانيم الثالوث في وحدة متمـايـزة، ومحبة الله التي لا رجعة عنها للإنسانية التي اتحد ذاتـه بها في المسيـح يسوع واعدها للمشاركة التامة معه وفيها بينها في وحدة حياته الثالوثية وغناها.

هذا ما يساعدهم على تحقيق تلك المصالحة الكيانية بين الغريـزة والايمان التي لا تنفي التـوتر الخـلاق ولا تلغي ضرورة الجهاد المحرر الذي قد يقسو احياناً، ولكنهـا تعطي لجهـادهم أرضيته السليمـة، إذ تحميهم من التمزق المـدمر والانقسـام العقيم، وتحفظ لـلايمـان حيـويتـه وسـلامتـه وللغريزة عافيتها ومعناها الانساني الأخير.